مشروع النهضة في فكر مالك بن نبي وتمثلاته لدى النخبة الجامعية الجزائرية بين زمن الاستقلال والزمن الراهن: استطلاع ميداني

الطاهر سعود(*)
أستاذ وباحث من الجزائر.

ملخص

تروم هذه الدراسة ذات المنحى النظري ـ الميداني، الحفر حول تمثّلات (Les Représentations) النخبة الجامعية الجزائرية ـ من أساتذة الجامعات، وطلبة الدراسات العليا (ماجستير ودكتوراه)؛ أي من أولئك المهتمين بفكر مالك بن نبي أو المشتغلين عليه، والذين اطلعوا على كتاباته ومشروعه الفكري، وأنجزوا حوله دراسات وأبحاث أكاديمية، إما في صورة رسائل وأطروحات جامعية (ليسانس، ماستر، ماجستير، دكتوراه)، أو في صورة دراسات (مقالات وأبحاث) ـ لمشروع النهضة الذي طرحه المفكر مالك بن نبي، ومساءلتهم بخصوصه، وعلى مستويات تفاعلهم معه وتقييمهم له، وحول ما يطرحه من رهانات، وما يعترضه من صعوبات.

Abstract

The study based on theoretical background and field inquiry scrutinizes deeply the representations of those Algerian teachers and doctorate students having a real interest on Malek bennabi's intellectual project, a sample of researchers that carried out academic studies and researches through either, the submission of dissertations and thesis, or through the publication of articles upon this project. It is worth stating that we approach the sample of researchers in order to understand the kinds of interconnections they are having with Malek bennabi's project and the types of evaluations they are building about it, but to reveal the challenges it stresses and the constraints facing its realization too

الكلمات المفتاحية: المشروع الفكري، النهضة، النخبة الجامعية، الفكر، مالك بن نبي.

(*) البريد الإلكتروني: tahar.saoud73@yahoo.fr.

مقدمة الدراسة وإشكاليتها

رغم الفترة الطويلة نسبياً منذ صدور الكتاب ـ المشروع **شروط النهضة الجزائرية** والذي حمل بذور رؤية تشخيصية كلية لأزمة تخلف وانحطاط العالم الإسلامي، وللشروط اللازمة لمعاودة الانطلاق والإقلاع الحضاري، لا يزال هذا الكتاب بوجه خاص، بل ومجمل كتابات مالك بن نبي، مجالاً للنقاش والدرس والسّجال الفكري بين عناصر النخبة الجامعية في أحرام مختلف الجامعات، والجامعات الجزائرية على وجه التحديد، بين من يشدّد على راهنية المشروع وإمكاناته المذخورة في إطلاق عملية إعادة بناء وتجديد يمكن أن تنقل العالم الإسلامي إلى أفق حضاري جديد ومكين؛ وبين من يعتبر أنه مشروع متجاوز، تقادم مع الزمن ولم يعد ممكنا الابتناء على كثير من مفرداته لأنها خلاصة فكر عائد إلى مرحلة تاريخية أصبحت هي الأخرى متجاوزة (مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ومرحلة القطبية الثنائية)، وأنّ علينا التفكير في ما بعد البنّبوية، لأن البنّبوية أصبحت متجاوزة بموجب متغيرات العصر العولمي الراهن.

في المقابل مثّل المشروع البنّبوي مجالا للنقاش والدرس والسّجال الفكري بين عناصر من النخب والفاعليات الجامعية في المرحلة التي أعقبت الاستقلال مباشرة عندما رجع مالك بن نبي إلى الجزائر وباشر نشاطه الفكري والثقافي؛ حيث تأثر به وبمشروعه نخبة من هؤلاء، ومثّلت حركيتهم ونشاطهم ونزعتهم النضالية جانباً من المشهد الثقافي والفكري والنضالي في ساحة الجامعة والمجتمع الجزائريين.

إنّ الحفر حول تمثلات بعض عناصر هذه النخبة الجامعية الجزائرية ـ من أمثال: رشيد بن عيسى، عمار طالبي، عبد الوهاب حمودة، نور الدين بوكروح.. وكثيرون غيرهم ـ للمشروع النهضوي البنّبوي مهم جداً لجهة التعرف إلى السياقات والشروط التي جعلتهم يتأثرون بالأطروحة البنّبوية، وتتحول لدى بعضهم إما إلى إطار فكري عام يَنظُمُ جهدهم الفكري والثقافي والاجتماعي؛ أو تتحول لدى بعضهم الآخر إلى أرضية للنضالية كما تجلى ذلك مع ما سمي بنخبة مسجد الجامعة المركزية.

لا بد من التذكير أنّ التأثير الفكري لمالك بن نبي على النخب الجامعية لم يكن مقصوراً على الحالة الجزائرية ـ التي يفترض أنها كانت أكثر احتكاكاً بشخصه وفكره لانتمائه الجغرافي لهذه المنطقة، ولوجود نخبة مهمة عدداً ونوعاً ممن كانوا على تواصل مباشر مع الرجل، ومع فكره على سبيل التتلمذ والتلقي؛ أو ممن تفاعلوا مع الأطروحة البنّبوية على سبيل الممارسة البحثية إما في شكل الأطروحة الجامعية، أو البحوث الجزئية التي تغطي مساحة ما من فكر الرجل في مجالات الفكر الإسلامي والفلسفة والتاريخ، وعلم الاجتماع وعلوم التربية والدراسات الاقتصادية.. وغيرها، ولو في زمن متأخر يمكن إرجاعه إلى فترة الثمانينيات عندما باشر بعض الجامعيين في فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية تقديم أطروحات جامعية حول مشروعه الفكري.

تحاول هذه الدراسة الاشتغال على شقين: شق تاريخي يبحث في الكيفية التي انهجست بها بعض الأسماء من النخبة الجامعية الجزائرية الأولى بالمشروع البنّبوي وتأثرت به، وذلك

بمراجعة بعض ما كتبوه أو قدموه على سبيل التأليف أو الشهادة؛ وشق راهني ـ وهو الأهم ـ يبحث في الكيفية التي تتفاعل بها النخبة الجامعية الجزائرية الحاضرة مع المشروع نفسه. ومن شأن هذا الخيار المنهجي أن يوصلنا إلى بعض العناصر المقارنة بين رؤية جيلين، رؤية الجيل الذي تلقى الأطروحة البنّبوية على سبيل التتلمذ والتأثر المباشر، ورؤية الجيل الجديد الذي دخل إلى عالم مالك بن نبي من طريق القراءة والبحث الأكاديمي؛ وعليه تحاول هذه الدراسة الإجابة عن السؤالين الآتيين:

ـ إلى أي مدى اطلعت نخب الجامعات الجزائرية على المشروع الفكري الذي طرحه مالك بن نبي؟

ـ وما هي الجدالات التي أحدثها ولا يزال يحدثها بين عناصر هذه النخبة؟

ـ وما هي العوائق التي تقف دون تعميم الوعي بهذا المشروع والاستفادة منه من وجهة نظر هؤلاء، باعتبارهم من المهتمين أو المتخصصين في فكر مالك بن نبي؟

أولاً: في انهجاس(*) النخب الجامعية العربية بالمشروع الفكري البنّبوي

يمكن لكل متتبع للمسار الفكري لمالك بن نبي أن يلحظ ذلك التأثير الذي مارسه مشروعه الفكري وأطروحاته النظرية حول موضوعات الثقافة، والحضارة، والتخلف، والنهضة، والاستعمار... وغيرها من المفردات الفكرية المكوّنة للقاموس الفكري البنّبوي على النخب الجامعية، على اختلاف امتداداتها الجغرافية، وتنوع مشاربها التخصصية.

يمكن أن نرقب منذ البداية بأنّ هذا التأثير لم يكن مقصوراً على الحالة الجزائرية، بل إنّ الحالة الجزائرية ـ لاعتبارات بعضها تاريخي (العامل الاستعماري)، وبعضها ثقافي ونفسي (الموقف من المثقف في مجتمعنا)، وبعضها أيديولوجي (موقف النخب اليسارية، موقف بعض النخب الإسلامية «الإخوانية») ـ تبدو متأخرة إزاء الانهجاس بفكر الرجل إذا ما قورنت ببعض الحالات العربية والإسلامية الأخرى (علماء ومثقفين وطلبة) التي أبانت عن إعجاب، و/أو تأثر، و/أو التفاف واضح بالرجل وبفكره وطروحاته.

إن مفكرّنا تحرك على مساحة واسعة تمتدّ مشرقاً ومغرباً، فقد تأثر به جودت سعيد السوري، وعمر مسقاوي اللبناني، وسيد حسن دسوقي المصري، ومحمد الفنيش الليبي، وراشد الغنوشي التونسي، وعبد السلام الهراس المغربي،.. وهؤلاء شدّدوا على ذكاء الأطروحة البنّبوية وعلى تميزها وقدرتها التفسيرية، وشكّلت بعض كتبه ـ وعلى رأسها كتاب **شروط النهضة** ـ مفتاحهم للولوج إلى العالم الفكري لمالك بن نبي، ونقطة البداية في

(*) على وزن انفعال وهو اشتقاق مولّد من اللفظ العربي «هاجس وهواجس» والذي يأخذ معنى التأثر الشديد.

مسار تعرفهم عليه. يصدّق ذلك بعض الشهادات التي دوّنها هؤلاء، سواء ممن التقى واحتك بشخص بن نبي مباشرة وتعرّف إلى فكره عن قرب، أو ممن أتيح له التعرّف إليه ـ أي على هذا الفكر ـ عبر كتبه ومنشوراته، أو عبر بعض المناسبات الفكرية التي كانت سبباً في أن يتعرف بعض الشباب إلى فكر الرجل ثم لتتوثق صلاتهم به لاحقاً، تلك هي حال عبد السلام الهراس وعمر مسقاوي مثلاً؛ حيث يقول الأول «في سنة 1956 كتب إحسان عبد القدوس مقالاً في مجلة روز اليوسف بعنوان الاستعمار في نفوسنا [...] فلما قرأنا هذا المقال، انطلقت أسأل عن هذا الرجل المفكر الجديد [...] ملخص القصة أنّ مالك رأيته في الغد [...] فبدأنا نعمل بعد أن اقتنعنا بأفكاره وبدأنا بترجمة كتابه شروط النهضة» (البنعيادي، 2009: 18 ـ 19).

ويبقى لكتاب **شروط النهضة** الذي سيصدر مترجماً إلى العربية بعد هذه المناسبة، تأثيره الواضح في بعض من دخل إلى عالم بن نبي من هذا الباب، كحال جودت سعيد عندما وقع في يده هذا الكتاب؛ حيث كتب يقول «أول مرة لم أفهم جيداً ماذا يريد، ولكن أحسست بنموذج جديد للفهم والتحليل، فقرأت وقرأت ودرست، بعد ذلك كنت أقرأ كل كتاب كان يصدر له بتأمل» (برغوث، 2006: 25)؛ أو حال سيد دسوقي الذي سجل مبيّناً تأثير هذا الكتاب في مساره الفكري عندما كتب يقول «لم يقدّر لي أن أقترب من الأستاذ مالك بن نبي شخصاً أو فكراً حتى خريف عام 1968، في ذلك الوقت كنت أعمل أستاذاً مساعداً [...] بالولايات المتحدة الأمريكية، وكنت في ندوة في الشرق الأمريكي والتقيت بأخ سوداني أعطاني نسخة من كتاب **شروط النهضة**، [...] شعرت بأنني أعرف الأستاذ مالكاً من قبل، وبأنّ هذه الأفكار كأنما تنبع من نفسي بعد أن حركتها كلماته في أعمق الأعماق» (حسن، [د. ت.]: 1). ويبرز حسن في مكان آخر المدى الذي أحدثه فيه فكر بن نبي قائلاً «وها أنذا وأنا في العقد الثامن من عمري [..] وقد قرأت آلاف الكتب في الأدب والدين والتاريخ والفن والفكر وذلك كله بجانب تخصصي في هندسة الطيران والفضاء، وأنظر متسائلاً ماذا استقر في وعائي الحضاري من كل هذا الذي قرأت؟ والإجابة أنّ الذي استقر في وعائي الفكري صفحات قليلة على رأسها مجموعة من الأفكار لأستاذنا مالك بن نبي تبدو لي كأنها قوانين نيوتن في علوم الحركة» (حسن، [د. ت.]: 1 ـ 2).

إنّ منهجية مالك بن نبي وطريقته المبتكرة في التحليل، وانفتاحه على العدّة المفهومية والمنهجية التي طورتها العلوم الإنسانية والاجتماعية، وكذا تكوينه الرياضي والتقني الدقيق، وتوظيفه لكل ذلك في مقاربته وتحليله للظاهرة الحضارية وعللها ومشكلاتها، كانت نقطة جذب جعلت كثيراً من النخب الجامعية العربية العائدة لتلك المرحلة تكتشف فيه منهجاً، و«مذهباً عجيباً، وطريقة مبتدعة وأسلوباً» إذا ما استعرنا تعبير ابن خلدون. وفي مرحلة ميّزها النضال من أجل الاستقلال من جهة، والعمل من أجل الحفاظ على الهوية من جهة أخرى (البنعيادي، 2009: 6) كانت أطروحات مالك بن نبي بالنسبة إلى ذلك الجيل ملاذاً يستمسكون به في زخم السجالات والمعارك الفكرية الناشبة.

ثانياً: في انهجاس النخبة الجامعية الجزائرية بالمشروع الفكري البنّبوي

إذا صرفنا النظر عن بعض الأسماء من النخبة الجامعية الجزائرية التي تعرّفت و/أو احتكّت بمالك بن نبي وبمشروعه الفكري في جزائر ما قبل الثورة، أو في فرنسا، أو في القاهرة عندما لجأ إليها سنة 1956، فإنّنا يمكن أن نتحدث عن أثر ملحوظ يكون بن نبي قد أحدثه في مستوى النخبة الجامعية الجزائرية العائدة لمرحلة الستينيات والسبعينيات عندما عاد مفكرنا إلى الجزائر سنة 1963 واستقر بها نهائياً، وباشر فيها عمله الفكري والتنويري. تكاد الكتابات والشهادات المتوافرة تجمع على الدور الفكري الكبير الذي أدّاه مالك بن نبي خلال الفترة الممتدة بين 1963 ـ 1973؛ أي خلال العقد الأول من استقلال الجزائر وما خبره فيه المجتمع الجزائري من مشكلات، وما انطرح عليه فيه من التحديات والرهانات.

في تلك اللحظة الزمنية التي قفل فيها مفكرنا راجعاً إلى الجزائر كان يتطلع إلى دور له فيها ولمشروعه الفكري، غير أنّ كتاباته لم تجد لها ملاذاً في خطط العهد الاستقلالي، وانتهى الأمر به إلى الاقتناع باستحالة تطبيق مشروعه (مسقاوي، 2013)، بيد أنّ الرجل وهو منظّر الفعالية بامتياز، لم ينحُ إلى العزلة بعدما استقال من خطة الوظيفة الرسمية (مدير التعليم العالي)، بل دشّن في بيته ندوة فكرية أسبوعية ومركزاً للتوجيه الثقافي (بن نبي، 2002: 42) سيكون نقطة فارقة في مسار العمل الثقافي والتنويري في المجال المغاربي، وفي المجال الجزائري على وجه التحديد.

إن بن نبي لم يكن كاتباً محترفاً بالمعنى المهني، مكبّاً على أشياء خامدة من الورق والكلمات كما يعتقد البعض، بل هو رجل العمل مثلما هو رجل النظر؛ أي رجل الفكرة التي تلد عملاً، وتتحول بالجهد إلى نشاط حي على مسرح الواقع الاجتماعي، لذلك جهد في هذه المرحلة ليحوّل ما سكنه من همّ وقلق النهضة إلى الآخرين من الشباب الجامعي الذين بدؤوا يلتفون حوله في حلقاته الأسبوعية، وفي محاضراته ونشاطاته الفكرية التي كان يقوم بها في جولاته المختلفة عبر أرجاء الوطن الجزائري.

ركّز بن نبي في جهده التنويري والتثقيفي على النخبة الجامعية دون غيرها على اعتبار أنّ السقف الفكري والأفق المعرفي الذي ينطلق منه مشروعه النهضوي والتغييري هو سقف يتأسس على أنّ جوهر المشكلات كامن في منظومة عالم الأفكار، وهو ما يتطلب للتفاعل مع مقتضياته أناساً بمواصفات خاصة، لن يكونوا في الأخير غير النخبة الجامعية المثقفة؛ كما ركّز على هذه الفئة لما يمكن أن تضطلع به من دور تغييري وطليعي في المجتمع، ولما ستشغله بعد تخرجها من مراكز للتوجيه والإشراف في مختلف أجهزة ومؤسسات الدولة الوليدة، والمجتمع الجديد.

لقد كان بن نبي ـ مثلما يؤكد تلميذه عبد الوهاب حمودة ـ حريصاً على أن يحضر حلقاته النخبة من الشباب الجامعي والثانوي من ذوي المستوى (مقابلة مع عبد الوهاب

حمودة، 2009/7/6)، وهو ما يؤكده أيضا تلميذه رشيد بن عيسى بقوله «كان بن نبي معلمنا الكبير [...] وكان قد أنشأ في منزله مركزاً أطلق عيه اسم مركز التوجيه الثقافي، وكنا نعقد فيه جلسات أسميناها جلسات الدرس، وكان مالك بن نبي يقول ينبغي أن نكتب على واجهة منزله لا يدخلنّ علينا إلا مهندس (Nul n'entre ici s'il n'est ingénieur)؛ كنا لا نريد الاعتماد على الإيمان بدلاً من العقل، كنا نريد ـ كما يقول إقبال ـ ليس إعادة بناء الفكر الديني فحسب، بل الفكر الشامل للمسلم [...] كنا نعلم على سبيل المثال أنّ حلّ مشكلة العالم الإسلامي لا يتم باستخدام بعض الأساليب السياسية، وأنّ حلّ المشكلة لا يكمن في الإطار القومي ولا في إطار المعالجة الاقتصادية، لكننا كنا ندرك بوجه عام أنّ الإطار الذي يناسبنا هو الإطار الحضاري والإطار الثقافي» (بورغا، 2001: 259).

في مقابل هذا التحليل البنّبوي الذي يطرح مشكلة النهضة الجزائرية، بل ومشكلة النهضة الإسلامية برمّتها بمفاهيم الثقافة والفعالية، ويجادل بأنّ جذر الأزمة حضاري ـ ثقافي؛ وأنّ أيّ جهد تغييري لا بد أن يتأسس على هذا التحليل، كانت جزائر الستينيات والسبعينيات تنسلك ضمن خيار أيديولوجي وتنموي يعطي للعناصر المادية الأولوية بامتياز، مستبعداً أن تكون القيم الروحية صالحة لبناء المجتمع اقتصادياً واجتماعياً، وأنّ طريق التنمية لا يمكن مقاربته حضارياً وثقافياً، بل اقتصادياً ومادياً، وهو ما انعكس في مستوى تكريس تهميش الإسلام في مرجعية الدولة السياسية والاقتصادية، وعدم الاعتقاد في فعاليته وجدواه كنظام سياسي واقتصادي، بل حينما تحول (أي الإسلام) إلى موضوع للنقد والاتهام بالرجعية، واعتباره عاملاً من عوامل التخلف والركود الاجتماعي من جانب العناصر اليسارية المتنفذة، وتلك التي باتت تهيمن على الفضاء الجامعي وتشغل فيه حيزاً مهماً إدارة وتكويناً ومناشط ثقافية وعلمية.

وعليه، يكاد يجمع كثير من تلاميذ مالك بن نبي على أنّ المناخ الذي كان سائداً في المجتمع العام، وفي مجتمع الجامعة على وجه التحديد، هو مناخ يتميز بضعف الالتزام الإسلامي على صعيد الفكر والسلوك، وبانتشار مواقف السلب والثلب، بل والتعيير إزاء الملتزمين بالإسلام عقدياً وعبادياً، حيث يجري وصمهم بالرجعية والتخلف والقروسطية، فضلاً عن انتشار مختلف مظاهر التفسخ والانحراف الأخلاقي، وشيوع النزعات المادية والإلحادية؛ مناخ لخّصته عبارة عبد الوهاب حمودة التلميذ المقرب من مالك بن نبي عندما وصّفه بمصطلح «الغربة» (عبد الوهاب حمودة، المقابلة السابقة).

في هذه الظرفية كان فكر بن نبي «يمثّل دعامة المعارضة العقلية الأكثر صلابة للأيديولوجية الماركسية التي كانت في أوج ازدهارها على مستوى الجامعات الجزائرية لسنوات السبعينيات» (بوجنون، 2002: 30)، لذلك توقفنا الشهادات المتوافرة لبعض تلاميذ بن نبي كيف أنّ هذا الصراع الأيديولوجي هو الذي جعلهم يقتربون أكثر من فكر الرجل ليجدوا فيه المصل الذي يتحصّنون به، ذلك ما أشار إليه مثلاً تلميذه نور الدين بوكروح عندما كتب يقول «لقد شكّل الأستاذ مالك بالنسبة إليّ معلماً ومعنى وتوجهاً [...] في تلك الفترة كانت الجزائر تحت سياط الماركسية ولذلك كان بن نبي بالنسبة لي البديل

الفكري والوجودي الذي استطيع من خلاله أن أواجه الدخيل، فقد كنت أجد في ندواته وكتاباته الإجابة عن التساؤلات التي كنت أطرحها على نفسي في تلك السن (20 سنة) وخصوصاً أن تلك الأجوبة الشافية المانعة كانت تخرج من صلب جزائري متمسك ببعده الحضاري وأمله الحداثي [...]. في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات كانت المثل الماركسية في ذروتها والثورة الثقافية والزراعية والصناعية، ولم تكن الشيوعية بارزة باسمها الحقيقي وإنما تحت غطاء الاشتراكية الجزائرية والفكر الثوري وشتى أنواع الطلائعية الأخرى، وقد كانت الجامعة حينها في برامجها وأساتذتها وإداريها تحت ربقة الماركسية [...] وقد كان بن نبي يحاول أن يثقل الكفة ويقول إنّ الطريق خطير على مستقبل الجزائر، وأنه من الضروري بناء أمة انطلاقاً من مكوناتها الخاصة» (بوكروح، 1993: 5).

وهو نفس ما شدّد عليه تلميذ آخر ممن لازم الحلقات الفكرية لمالك بن نبي منذ 1968، وهو محمد السعيد مولاي الذي شدّد على أهمية ما وجده في محاضرات أستاذه لدرء ذلك الانفصام الذي يرى أنه شق وجدانه بين العصرنة والأصالة، وبخاصة في ما وجده في كتابه **الظاهرة القرآنية** الذي كتبه بن نبي خصيصاً للشباب المسلم الباحث عن التوازن بين إيمانه الإسلامي والروح الديكارتية، وفي هذا يقول «كان افتتاح السنة الجامعية في شهر أيلول/سبتمبر [1968]، فدخلت مع الطلبة مدرجات كلية العلوم، وإذا بالأجواء تتغير والأهواء تتشعب، [...] فهذا لا يؤمن بدين ولا ملة [...]، وهذا يدعوك إلى الانخراط في صفوف الماركسية العالمية والاشتراكية العلمية للنضال من أجل حقوق الطلبة وسعادة البشرية، [...]، وكان[...] أن تصادف [...] دخولي إلى الجامعة المركزية مع افتتاح مسجد الطلبة [...]، وفي هذا المسجد تعرفت إلى رشيد بن عيسى الذي أخذ بيدي لحضور ندوة مالك بن نبي في بيته [...]، هنالك تعرفت إلى الأستاذ مالك بن نبي لأول مرة والتزمت بحضور ندواته الأسبوعية» (مولاي، 2012).

أياً كان الأمر فإنّ هذه الصفوة من المثقفين ذوي الخلفية التقنية والعلمية (حيث كانوا في أغلبيتهم من المنحدرين من كلية الطب والكليات العلمية) واللسان المفرنس (Les Intellectuels francisants)، أو البنّابيون (Les Binnabistes) كما يحلو للبعض تسميتهم، والذين تحلّقوا حول المفكر بن نبي، وجمعتهم ظروف مخصوصة (الغربة الفكرية والثقافية بتعبير عبد الوهاب حمودة)، وأخذوا عنه مباشرة وعلى سبيل التتلمذ والاحتكاك المباشر، المعالم الكبرى لأطروحته حول النهضة والتحضر، سينقسمون إزاء الخيارات والبدائل التي يمكن التوسّل بها للعودة بالمجتمع إلى ساحة الفعل الحضاري وتحقيق الفعالية الاجتماعية، والخروج من حالة التخلف، وتدشين طريق النهضة الجديد؛ فمنهم من اتخذ من الأطروحة البنّبوية إطاراً فكرياً لجهده التغييري والثقافي والاجتماعي دون الانخراط في أي نوع من أنواع العمل ذي الطابع التنظيمي والحركي، ومنهم من انطلق من هذه الأطروحة وأعطى لها بُعداً نضالياً بتطويره للنشاط العفوي المنبثق من حلقات بن نبي ليأخذ شكل التنظيم الحركي المهيكل.

1 ـ الأطروحة البنّبوية، كإطار فكري عام ناظم للجهد الفكري والثقافي والاجتماعي

يمكن للمتتبع لمسارات بعض الأسماء الوازنة من تلاميذ بن نبي وورثة مشروعه الفكري أن يدرك من دون عناء الانقسامية الحاصلة في صفوف هؤلاء؛ حيث اختار بعضهم الكتابة الأكاديمية والنشاط الثقافي والفكري كما هو حال حمزة بن عيسى الذي ورث مهمة التنظير الفكري بسعيه عبر عديد أعماله للتبشير بالأطروحة البنّبوية و/أو تطويرها؛ واختار بعضهم العمل السياسي عندما انفتح هذا المجال بعد تشرين الأول/أكتوبر 1988 كما هي حال نور الدين بوكروح الذي أسس حزب التجديد الجزائري (PRA) معتمداً في رؤيته الحزبية على بعض الأفكار التي طرحها أستاذه.

إنّ الاختلاف المائز بين تلاميذ بن نبي لا يرجع إلى اختلاف في مستوى وسائل وطرائق العمل فحسب، بل هو اختلاف يمكن ملاحظته حتى في مستوى رؤية وفهم ركائز الأطروحة البنّبوية؛ حيث يمكن أن نعثر على اتجاهين اثنين:

ـ **الاتجاه الأول:** يبدو أكثر محافظة على الرغم من أنه يقدم تفسيراً حضارياً للإسلام باعتباره الأساس لإطلاق الشرارة (Le Catalyseur) التي يمكن أن تحدث التركيب الحضاري المرجو.

ـ و**الاتجاه الثاني:** ينحو إلى تقديم قراءة أكثر براغماتية، أو قل أكثر لبرالية، وهو ما نعثر عليه عند نور الدين بوكروح مثلاً، وهو الذي عبّر عن هذا المسلك حينما سئل عن تعبير «البنّابيون»، وعن الذي تختلفون فيه داخل الدائرة الواحدة التي كان يشرف عليها بن نبي؟؛ حيث أجاب «لقد كانت هناك اتجاهات عدة لدى تلاميذه وهو على قيد الحياة، فهناك من كانوا يغورون ـ عكس ما كان يدرسه مالك بن نبي نفسه ـ في طابع الدولة الإسلامية كما يدعو إليها أبو الأعلى المودودي وسيد قطب وأقطاب آخرون في الدعوة العالمية [...] أما التيار الذي نمثله نحن فهو عقلاني عالمي عصراني إنساني ومتحرر بمعنى الكلمة» (بوكروح، 1993: 5).

2 ـ الأطروحة البنّبوية كأرضية للنضالية الإسلامية

يبدو الاتجاه الذي تبنى الأطروحة البنّبوية كأرضية للنضالية الإسلامية (Le Militantisme islamiste) أكثر اتساعاً من سابقيه، ذلك أن الكثيرين من تلامذة بن نبي اندرجوا ضمنه وانخرطوا في فعالياته، وهو ما تجلى في ما سمّي في ما بعد بنخبة مسجد الجامعة المركزية. يشدّد بعض تلامذة بن نبي أنّ الندوات الفكرية التي نشطها والتي استمرت من 1966 إلى 1973، شكّلت ظرفاً فكرياً ونفسياً مواتياً انعكس بالإيجاب على النخبة الجامعية التي كانت تحضرها؛ حيث أتاح لهم هذا المناخ فرصة التعارف فيما بينهم وتوثيق شبكة علاقاتهم الاجتماعية والسيكولوجية.

لقد قامت هذه الندوات مثلما يقول مصطفى براهمي ـ وهو واحد ممن كانوا مداومين على حضورها ـ بوظيفة ترشيد وإنضاج (Un Rôle de maturation) لعقل النخبة الطلابية، وكان من نتائجها: فتح أول مسجد بجامعة جزائرية في أيلول/سبتمبر 1968 وظهور الحجاب في الجامعة الجزائرية في عام 1969، وإطلاق تجربة ملتقيات التعرف إلى الفكر الإسلامي، ثم معرض الكتاب الإسلامي، وبالحصيلة تدشين انطلاقة دعوية جديدة (مصطفى، 1990: 37 ـ 38).

نعود فنؤكد أنه كان لجهود بن نبي تلك، أثر في بعض تلامذته من الذين كانوا يحضرون دروسه وحلقاته الفكرية، ليتبنّوا فيما بعد فكرة إنشاء نواة تنظيمية للعمل الحركي الإسلامي في الجزائر؛ ففتح مسجد الجامعة والذي كان بتوصية من بن نبي نفسه إدراكاً منه لأهمية مؤسسة المسجد كفضاء للتربية والتثقيف في حرم الجامعة التي كانت حتى فترة متأخرة معقلاً للفكر والنضالية اليسارية، سيغدو ليس فقط مكانا تؤدى فيه شعيرة الصلاة، بل مثلما وصفه مصطفى براهمي «أحد الأماكن الرفيعة للتفكير ولإعداد الشباب المسلم المنجذب نحو مشروع المجتمع الإسلامي. لقد كان مكاناً للالتقاء بين الجامعيين، وفضاء لتمثّل الفكر البنّبوي؛ حيث كان يتم تبادل النقاش والحوار حول أفكار النهضة» (Brahami, 2007).

وعقب فتح مسجد الجامعة توالت النشاطات التأسيسية؛ حيث أُطلقت تجربة ملتقى التعرف إلى الفكر الإسلامي، وتجربة معرض الكتاب الإسلامي، وأسابيع القرآن الكريم، وأسس الطلبة بإشراف بن نبي مجلتهم «Que sais-je de l'Islam?»، ماذا أعرف عن الإسلام؟ وكانت كل الظروف مهيئة لتبلور تجربة من العمل الحركي المنظم، ومن النشاط الذي توسع وانداح بعدها في مختلف جامعات القطر الجزائري.

ينبغي الاعتراف في الأخير بأن توسيع الوعي بفكر بن نبي، وتمثّله، ونقله إلى الأجيال اللاحقة من طلبة الجامعات والثانويات، قد أدّى فيه هذا الاتجاه الذي أسميناه اتجاه النضالية الإسلامية الدور الكبير. ولعلّ تحول الأطروحة البنّبوية إلى مجال للاشتغال الأكاديمي ودخولها إلى المؤسسة الجامعية والبحثية في الجزائر خلال الفترة اللاحقة ناجم في كثير من جوانبه عن جهود هؤلاء الذين بقوا أوفياء لميراث أستاذهم، وهو ما سنحاول دراسته والحفر حوله في الشق الميداني من هذه الدراسة.

ثالثاً: الدراسة الميدانية

لأجل الإجابة عن تساؤلات الدراسة إزاء الكيفية التي يتمثّل بها بعض المشتغلين والمهتمين من النخبة الجامعية الجزائرية بفكر بن نبي وبالمشروع النهضوي الذي يطرحه، قمنا بمسح استكشافي ميداني لعيّنة من هؤلاء.

1 ـ منهج الدراسة وعيِّنتها

اعتمدنا في هذه الدراسة الاستكشافية على منهج المسح الاجتماعي لعيِّنة من المهتمين بفكر بن نبي، ومن الباحثين المتخصصين الذين سبق لهم الاشتغال الأكاديمي على فكره، وهي عينة من النوع غير الاحتمالي؛ أي «العينة القصدية»، وقد وزعنا ما يقارب 40 استمارة بالطريقة الإلكترونية على هؤلاء، وهو العدد الذي استطعنا إحصاءه وحصره من خلال معرفتنا السابقة بهم اعتماداً على مدخل الشهرة؛ حيث اشتهر هؤلاء في الفضاء البحثي والتدريسي الجامعي بأنهم ممن اشتغل على فكر الرجل أو اهتم ويهتم به، وهم موزعون جغرافياً على مختلف الجامعات الجزائرية (شرق، غرب، وسط) ممثلة بـ: جامعات محمد لمين دباغين بسطيف، وجامعة الحاج لخضر بباتنة، وجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، وجامعة العربي بن مهيدي بأم البواقي، وجامعة برج باجي مختار بعنابة، وجامعة أبو القاسم سعد الله بالجزائر العاصمة، وجامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، وجامعة أحمد بن بلة بوهران. كما يبرّر اقتصارنا على هذا العدد من المبحوثين بالمسوّغات الآتية:

ـ أنّ هدف الدراسة كان استطلاعياً بالأساس، وصعوبة الحصول على عدد أكبر من المبحوثين رغم إمكانات توافرهم لضيق الوقت المتاح للدراسة الميدانية.

بيد أننا ننبّه إلى أنه من مجموع ما وزّعناه واستعدناه من هذا الاستبيان وكان صالحاً للتفريغ (22) استبياناً فقط؛ حيث لم يتجاوب معنا بعض المهتمين والمشتغلين على فكر بن نبي ممن راسلناهم وذكّرناهم لعديد المرات، كما أن هناك بعض الاستمارات المسترجعة لم تكن مكتملة المعلومات وعلى هذا تم استبعادها من التبويب.

2 ـ أدوات جمع البيانات

اعتمدنا في هذه الدراسة على استمارة الاستبيان كأداة أساسية. تم توزيع عدد كبير منها في الفترة الممتدة بين مفتتح ومنتصف شهر تشرين الثاني/نوفمبر 2018، بالطريقة الإلكترونية، وتم استرجاعها بالطريقة نفسها. بنيت الاستمارة وتوزعت منهجياً على ثلاثة محاور أساسية هي:

ـ **محور أول** خاص بالبيانات الشخصية الضرورية عن المبحوث: مكوّن من أربعة أسئلة حول سن المبحوث وتخصصه العلمي وجامعة تخرجه في المراحل المختلفة من الدراسة الجامعية (الليسانس والماجستير والدكتوراه)، ورتبته العلمية.

ـ **محور ثان** يتضمن أسئلة عامة تتعلق بمسالك تعرّف المبحوث إلى فكر مالك بن نبي ومدى اطلاعه عليه: تم فيه التركيز على الكيفية التي تعرّف من خلالها المبحوث على شخص وفكر بن نبي لأول مرة، وانطوى على أسئلة تتعلق بالكيفية التي يقيّم بها المبحوث نفسه إزاء فكر الرجل إما كمتخصص أو كمهتم، وطريقة اهتمامه بفكره، وحول ما إذا كان قد أنجز دراسات حوله (أطروحات، مقالات..)، (الأسئلة من 5 ـ 12).

ـ **محور ثالث** يهتم بتقييم المبحوثين لفكر بن نبي: اشتمل على عدد وازن من الأسئلة ذات الصلة برؤيتهم لفكر بن نبي على الإجمال، ومدى اطلاعهم على كل ما كتب، وكذا موقفهم من بعض هذه الكتب. إضافة إلى موقفهم التقييمي من مدى اطلاع النخب الجامعية الجزائرية على المدونة البنّبوية والمشروع الفكري الذي تعبّر عنه، ومدى حضوره في نقاشات هذه النخبة، وحضوره على صعيد المؤسسة البحثية، ثم في الأخير حول مدى راهنية المشروع البنّبوي، ومدى إمكان إسهامه في إطلاق عملية إعادة بناء حضاري جديد، وهل ما زالت الأطروحة البنّبوية صالحة في هذا الزمن العولمي، أم أنها أصبحت متجاوزة كلياً أو جزئياً، ثم ختمنا المحور بسؤال حول العوائق التي يراها المبحوثون تقف دون تعميم الوعي بمشروع بن نبي وتحقيق الاستفادة منه.

ينبغي أن نشير أخيراً إلى أن أغلب أسئلة هذا المحور (الأسئلة من 13 ـ 27) كانت من النوع المفتوح، وقد كان هذا خياراً مقصوداً لنترك للمبحوث فرصة التعبير بحرية أكبر عن تمثلاته حول مشروع بن نبي، من زوايا المساءلة التي حددناها.

3 ـ تبويب وتحليل وتفسير نتائج الدراسة الميدانية

أ ـ خصائص العيّنة:

الجدول الرقم (1)

سن المبحوثين

فئات السن	ك	النسبة
30 ـ 35	03	13.65
36 ـ 40	05	22.72
41 ـ 50	10	**45.45**
أكثر من 51	04	18.18
المجموع	**22**	**100**

يبرز الجدول تنوعاً جيلياً بين المشتغلين بفكر بن نبي؛ حيث يظهر أنّ فكر الرجل وإن تركز المهتمون والمشتغلون به في الفئة العمرية بين 41 ـ 50، إلا أنه يعكس أيضاً اهتماماً مقبولاً لدى الفئات الأكثر شباباً بين 30 ـ 40 سنة، وإن كانوا كلهم من الذكور؛ حيث لم نعثر ـ في حدود اطلاعنا ـ على باحثات اشتغلن على مفكرنا.

الجدول الرقم (2)
التخصص العلمي للمبحوثين

التخصص	ك	النسبة المئوية
العلوم الإسلامية	08	**36.36**
الفلسفة	06	27.27
علم الاجتماع	05	22.72
التاريخ	01	04.55
علوم التربية	01	04.55
العلوم السياسية	01	04.55
المجموع	**22**	**100**

يُبِين الجدول (2) عن ظاهرة مهمة تتعلق بتنوع الحقول التخصصية التي ينحدر منها المبحوثون، وهي تبرز مدى قدرة الفكر البنّوي على اجتذاب النخب الجامعية من حقول معرفية متعددة، كما تعكس تنوع وتركيبية هذه الأطروحة التي تندمج فيها العدة المفهومية والمنهجية لحزمة من التخصصات الإنسانية في مقاربة المشكلة الحضارية، وهو ما وجد فيه هؤلاء موضوعاً للاشتغال الأكاديمي، كل من زاوية تخصصه، وإن بدا أن تخصصات العلوم الإسلامية والفلسفة والسوسيولوجيا هي الأكثر بروزاً.

الجدول الرقم (3)
جامعة تخرج للمبحوثين

الشهادة / جامعة التخرج	الليسانس		الماجستير		الدكتوراه	
	ك	النسبة المئوية	ك	النسبة المئوية	ك	النسبة المئوية
جامعة جزائرية	22	100	16	72.73	12	54.54
جامعة أجنبية	00	00	06	27.27	06	27.27
المجموع	**22**	**100**	**22**	**30**	**18**	**81.81**

كل المبحوثين حاصلين على الليسانس الجزائرية، وعلى الماجستير، ولكن 27.27 بالمئة منهم حازوا هذه الشهادة من جامعة أجنبية دارت موضوعات بعضها حول فكر مالك بن نبي، أما الحاصلون على الدكتوراه (بعضهم قدم أطروحة حول بن نبي) فيشكلون ما نسبته

81.81 بالمئة من المبحوثين؛ أي جميعهم عدا ثلاثة لا زالوا يحضرون الدكتوراه. كما يبرز الجدول حضور موضوع بن نبي في المؤسسة البحثية الأجنبية؛ حيث أنهى بعض المبحوثين أطروحاتهم في جامعات أجنبية (فرنسا، ماليزيا).

الجدول الرقم (4)
الرتبة العلمية للمبحوثين

التخصص	ك	النسبة المئوية
أستاذ التعليم العالي (Professeur)	07	31.82
أستاذ محاضر	09	**40.92**
أستاذ مساعد	03	13.63
أستاذ مؤقت (حائز على ماجستير ويحضر للدكتوراه)	03	13.63
المجموع	**22**	**100**

ما يقارب ثلاثة أرباع المبحوثين (72.74 بالمئة) هم أساتذة الرتب العليا من التعليم الجامعي (بروفيسور، محاضر)، وهم على مراس بالتدريس والبحث، وكثير منهم قدّم عملاً بحثياً أو أكثر (أطروحات، مقالات) حول فكر بن نبي، وعلى هذا فرأيهم إزاءه وازن، وهو يعكس من دون شك جانباً مهماً من تمثّلات النخبة الجزائرية حول المشروع البنّبوي.

ب ـ مسالك تعرّف المبحوثين إلى فكر مالك بن نبي ومدى اطلاعهم عليه

الجدول الرقم (5)
الطريقة التي يقيم بها المبحوث نفسه إزاء فكر مالك بن نبي

الموقف	ك	النسبة المئوية
مهتم بفكر مالك بن نبي	17	**77.27**
متخصص في فكر مالك بن نبي	05	22.73
المجموع	22	100

أغلبية المبحوثين (77.27 بالمئة) يقيّمون أنفسهم كمهتمين بفكر بن نبي، ورغم أنّ كثيراً من هؤلاء قدموا أعمالاً أكاديمية حول فكر الرجل، وبعضهم ناقش أطروحات ماجستير ودكتوراه في فكر بن نبي إلا أنهم اختاروا ـ ربما تواضعاً ـ تقييم أنفسهم كمهتمين وليس

كمتخصصين. حاصل القول أنّ عينة بهذه المواصفات يمكن أن تمنحنا تقويماً واقعياً للأطروحة البنّوية وتعكس لنا جانباً من تمثّلات النخبة الجامعية الجزائرية.

الجدول الرقم (6)

أوجه اهتمام المبحوث بفكر مالك بن نبي

وجه الاهتمام	ك	النسبة المئوية
حضور فعاليات علمية تهتم بفكر بن نبي	20	35.71
تقديم محاضرات عامة للتعريف بفكر الرجل	14	25.00
متابعة الكتابات الجديدة ذات الصلة بفكره	19	**33.93**
أوجه أخرى للاهتمام	03	05.36
المجموع	**56**	**100**

شدد أغلب المبحوثين على أن أوجه اهتمامهم بفكر بن نبي تتنوع بين الحضور، والمحاضرة، ومتابعة ما يستجد مما يكتب حول فكر الرجل، بينما شدّد بعضهم، فضلاً عن ذلك، على أنهم يوجهون الطلبة للاهتمام بفكر بن نبي ليكون موضوع اشتغالهم في مستوى الماستر والدكتوراه. كما أكّد البعض الآخر أنه يوظف مفاهيمه في الدرس والتعليم، وعلى الإجمال يبدو الجميع على تواصل مستديم بفكر الرجل.

الجدول الرقم (7)

عدد البحوث التي أنجزها المبحوثون حول فكر بن نبي
(عدا الأطروحات والرسائل الجامعية)

عدد الأعمال	الأبحاث المنشورة		الأبحاث غير المنشورة		المجموع	
	ك	النسبة المئوية	ك	النسبة المئوية	ك	النسبة المئوية
من 1 ـ 2	04	44.45	03	50	07	46.67
من 3 ـ 4	01	11.11	01	16.67	02	13.33
من 5 ـ 6	02	22.22	02	33.33	04	26.67
أكثر من 8	02	22.22	00	00.00	02	13.33
المجموع	**09**	**100**	**06**	**100**	**15**	**100**

أغلب المبحوثين تقريباً أنجزوا عملاً أو أكثر حول فكر بن نبي، إما في شكل المقال الأكاديمي أو الكتاب؛ حيث تنوع بين العمل المنشور وغير المنشور، وذلك يُبرز مستوى

من التعامل مع فكر الرجل لم يبق حبيس القراءة فحسب، وإنما اتجه إلى مستوى أعلى هو التفاعل مع فكره على سبيل التعريف به، أو البناء عليه، أو حتى نقده. ومن شأن نخبة هذه مواصفاتها أن تعكس مستوى ناضجاً لدى تقييمها للأطروحة البنّبوية.

الجدول الرقم (8)

المرحلة التي تعرف فيها المبحوث إلى شخص مالك بن نبي، والمرحلة التي احتك فيها لأول مرة مع فكره

الفترة	فترة تعرف المبحوث إلى شخص بن نبي		فترة احتكاك المبحوث لأول مرة مع فكر بن نبي	
	ك	النسبة المئوية	ك	النسبة المئوية
في المرحلة المتوسطة	03	13.63	01	04.54
في المرحلة الثانوية	14	**63.64**	09	40.91
في المرحلة الجامعية	05	22.73	12	**54.55**
المجموع	**22**	**100**	**22**	**100**

المرحلة الثانوية هي الفترة التي تعرّف فيها أغلبية المبحوثين إلى اسم بن نبي، وهذا طبيعي لما تمثله هذه المرحلة من بداية النضج وصناعة عالم الأشخاص الذين قد يكونون مصدر إلهام وتأثير، بينما شكّلت مرحلة الجامعة لدى أغلبية المبحوثين الفترة الحاسمة لبداية احتكاكهم مع فكر الرجل، والقراءة له والتعمق في أفكاره. كما اختارت فئة قليلة من المبحوثين التأكيد أنّهم كانوا على صلة بفكر الرجل أو تعرفوا إلى شخصه في مرحلة باكرة من مسارهم التكويني (المرحلة المتوسطة)، وهو ما يعزز فرضية حضور اسم بن نبي وبعض أفكاره في المحيط الجزائري في الفترة السابقة.

الجدول الرقم (9)

الطريقة التي تعرف فيها المبحوث إلى المشروع الفكري لمالك بن نبي

الطريقة	ك	النسبة المئوية
على سبيل التتلمذ المباشر على بعض تلاميذ بن نبي	08	25.81
على سبيل المصادفة	02	06.45
من خلال الزملاء	05	16.13
من خلال الأساتذة	11	**35.48**
واسطات أخرى	05	16.13
المجموع	**31**	**100**

شكّل الأساتذة، ثم التتلمذ على بعض تلامذة بن نبي، ثم زملاء الدراسة، أبرز الوسائط التي كانت سبباً في تعرّف المبحوثين على مشروعه، وهذا يعكس أهمية الوسط الدراسي الثانوي والجامعي بمختلف عناصره (أساتذة، طلبة)، وتأثيره في الطالب عندما يؤدي هذا الوسط وظيفته في انفتاحه على عالم الأفكار والمفكرين. أما بقية المبحوثين فصرحوا بأن المصادفة أو الأسرة أو الصحافة هي من كانت نافذتهم على فكر بن نبي.

الجدول الرقم (10)

طريقة اطلاع المبحوث على كتابات بن نبي لغرض البحث الأكاديمي

الطريقة	ك	النسبة المئوية
قرأت كتبه مباشرة في أصلها الفرنسي	02	08.00
قرأت كتبه مباشرة في ترجمتها العربية	16	**64.00**
قرأت بعضها بالفرنسية وبعضها بالعربية	07	28.00
المجموع	**25**	**100**

شدّد أغلب المبحوثين على أنهم اطلعوا على كتابات مالك بن نبي في ترجمتها العربية (64 بالمئة)، بينما اختار بعضهم التأكيد أنهم اطلعوا على بعضها بالعربية وعلى البعض الآخر بالفرنسية، وقلّة منهم اطلعوا عليها باللغة الفرنسية، ولعل ذلك يعود لتوافر الكتب المترجمة إلى العربية أكثر من غيرها، وإن كانت التقاليد البحثية في العمل الأكاديمي تقتضي الاطلاع على المصادر في لغتها الأصلية التي كتبت بها.

الجدول الرقم (11)

مدى اطلاع المبحوث على كتابات بن نبي

التقييم	ك	النسبة المئوية
جميعها	09	40.91
أغلبيتها	13	**59.09**
المجموع	**22**	**100**

بخصوص مدى الاطلاع على كتابات بن نبي أكّد معظم المبحوثين (59.09 بالمئة منهم) بأنهم اطلعوا على أغلبيتها، ذلك أنّ هناك كتباً جديدة صدرت لبن نبي حديثاً ويتتابع بعضها

الآخر في الصدور، وهو ما لم يتح لهم ـ ربما ـ مسحها جميعاً. في مقابل 40.91 بالمئة من المبحوثين أكّدوا اطلاعهم على جميع مؤلفات بن نبي.

الجدول الرقم (12)
أول ما قرأه المبحوثون من كتب مالك بن نبي

أول كتاب قرأه المبحوث	ك	النسبة المئوية
شروط النهضة	**09**	**40.90**
ميلاد مجتمع	03	13.62
مذكرات شاهد للقرن	02	09.09
الظاهرة القرآنية	02	09.09
مشكلة الثقافة	01	04.55
تأملات	01	04.55
مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي	01	04.55
وجهة العالم الإسلامي	01	04.55
الصراع الفكري في البلاد المستعمرة	01	04.55
بين الرشاد والتيه	01	04.55
المجموع	**22**	**100**

أما بخصوص أول ما قرأه هؤلاء من هذه المؤلفات في مسار احتكاكهم بفكر الرجل فقد كانت لكل واحد منهم تجربته الخاصة مع عنوان من هذه العناوين، بيد أنّ كتاب **شروط النهضة** كان بالنسبة إلى أغلبيتهم 40.90 بالمئة أول كتاب قرؤوه في هذا الصدد، ثم يأتي بعده تباعاً كتاب **ميلاد مجتمع** وكتاب **مذكرات شاهد للقرن**. بخصوص الكتاب الذي يراه المبحوثون يلخص مشروعه الفكري بكل وضوح أجمع أغلبهم بما نسبته 77.27 بالمئة منهم بأنه كتاب **شروط النهضة**، معتبرين إياه كتاباً عمدة، يمكن أن يلج من خلاله المهتمون إلى المشروع الفكري لبن نبي؛ حيث قعّد فيه لنظريته في الحضارة، وشروط تجاوز مشكلاتها، أما بقية الكتب فهي شارحة وموضحة لأفكاره ومضامينه. في مقابل ذلك شدد بعض المبحوثين 22.73 بالمئة منهم على أنّ كتابَيْ **مشكلة الأفكار** و**وجهة العالم الإسلامي** يلخصان بحق مشروع بن نبي، فالكتاب **الأول** يروم بناء العقل النظري، ويبرز أهمية الفكرة وثقلها في حياة المجتمع، بينما يروم **الثاني** بناء العقل العملي، كما أنه يلخّص المشكلة الإسلامية والإنجاز والإخفاق الذي حققه العالم الإسلامي، ويستشرف آفاقه ووجهته. أمّا عن

الملاحظات التي بدت للمبحوثين وهم يطالعون أولى كتابات بن نبي فقد أجمعوا على تميّز وعمق النص البنّبوي، وقدرته على ملامسة مشكلات المسلم المعاصر، وعلى منهجية بن نبي في تحليل الظواهر التي تجاوز فيها المسالك الفقهية والوعظية والتقليدية، وعلى انفتاحه على العدّة المفهومية والمنهجية للعلوم الإنسانية وتحريكه لها في دراسة مشكلات العالم الإسلامي.

4 ـ تقييم المبحوثين لفكر بن نبي

• في مسحنا لإجابات المبحوثين حول سؤال يتعلق بـ «الكيفية التي يوازن بها هؤلاء بين رؤية الجيل القديم الذي تلقى الأطروحة البنّبوية على سبيل التتلمذ المباشر على الرجل، ورؤية الجيل الجديد الذي دخل إليها من طريق القراءة والبحث الأكاديميّ:

لمسنا نوعاً من الاستقطاب بين إجاباتهم إزاء تقييمهم للفوارق الجيلية التي تشرط رؤية الجيلين؛ فهناك من شدّد على جوانب من القوة في رؤية الجيل **الأول** في مقابل جوانب من الضعف في رؤية الجيل **الجديد**، وقبالة هذا الرأي يصطف رأي آخر يشيد بمناقب الجيل الجديد ومثالب الجيل القديم. من نماذج هذه الإجابات قول بعض المبحوثين بأن «رؤية الجيل القديم كانت حاملة لروح الفكرة وتفاعلت معها عملياً»، وأنّ رؤيته «أعمق لأنها تحمل روح الفكرة وحمولتها الرؤيوية»، وأنّ «أثر فكر بن نبي في الجيل القديم أكثر وضوحاً وفاعلية منه لدى الجيل الجديد».

يفسّر هذا المسلك ما أشار إليه أحد المبحوثين من أنّ الجيل القديم «لامس في بن نبي صرامة ودقة المنظّر والمفكّر، وأحسّ منه من جهة أخرى حماسة الداعية والمربي»؛ حيث ارتبط هؤلاء «لا بمجرد فكر الرجل والقيمة المضافة التي قدمها وإنما بنوع من التمحور ـ الخفي ـ حول شخصه»، ولذلك كانوا أكثر نزوعاً إلى العملية والفاعلية من الجيل الجديد، يسوّغ ذلك أنّ الفكر المدون لا يبلّغ عادة التصور كما يراه صاحبه، لأن الحديث المباشر والسلوك العملي ـ وهو ما لمسه الجيل القديم نظير معايشته للرجل ـ هو من يفسّر الفكر عملياً ويبسّط بعض غوامضه، وهو أمر ليس في متاح من تعامل مع النص فقط كما هي حال النخبة الجامعية الجديدة.

قبالة هذه الرؤية تصطف رؤية أخرى تشدّد على أنّ رؤية الجيل الجديد «تكتسي شيئاً من العمق لتراكم القراءات الفكرية لهذا المشروع وإن كان ذلك مصحوباً بشيء من خفوت روح الفكرة»، وأنّ «الجيل الجديد أكثر براغماتية من القديم، ويصعب تجنيده في مسارات أيديولوجية كما كان حال الجيل القديم الذي كانت لديه نزعة محافظة غير مبررة»، وأنّ الجيل الجديد يحتفي بالأطروحة البنّبوية نظير قيمتها العلمية وليس الأيديولوجية، ويقرأ هذه النصوص بغرض المقتضيات العلمية والأكاديمية، وعلى هذا «فالجيل الجديد كان أكثر موضوعية في التعامل مع كتابات بن نبي لأنه احتفى بها معرفياً وعلمياً وليس أيديولوجياً» وكان «أكثر انفتاحاً على الأطروحات الجديدة والنقدية».

مع هذا لا تني بعض مواقف المبحوثين الأخرى من توجيه سهام النقد إلى هذا الجيل أو ذاك، فالجيل القديم حسب البعض شغلته النزعة النضالية، «وكان توسّله بالفكر البنّبوي «كأداة نضالية ومنهج في تغيير الوعي والسعي»، والجيل الجديد غرق في التنظير ونسي الروح العملية التي يفترض أن تنتهي إليها الفكرة البنّبوية، فهو يتعامل معها على أساس «فلسفي، تكلمي فكري تجريدي بعيداً عن الواقع».

• بخصوص السؤال الذي مفاده «إلى أي مدى تقيّم اطلاع النخب الجامعية الجزائرية على المشروع الفكري الذي طرحه كتاب **شروط النهضة**؟:

شدّد أغلبية المبحوثين على جملة من الأمور أولها: «أن فكر بن نبي وأطروحته قد تجاوزت مرحلة العزلة والحصار من بعض النخب الجزائرية التي ظلت تتجاهل فكره لمدة طويلة»، ويبدو أنّ لهذا الرأي وجاهته، ففكر بن نبي لم يعد معزولاً كما كان شأنه في الفترة الستينية والسبعينية حينما كان محارَباً من اليسار الماركسي، أو من بعض فعاليات الجناح الإخواني في الجزائر التي وقعت تحت تأثير الموقف الحدي لغازي التوبة في كتابه **الفكر الإسلامي المعاصر دراسة وتقويم**. فمع العدد الكبير من الأطروحات والرسائل والمؤتمرات التي تتناول فكر بن نبي يتبين مدى قدرة هذا الفكر على مقاومة التغييب، بيد أنّ هذه الرجعة، وهذا الحضور، لا يعنيان دائماً أنّ فكر الرجل قد أخذ مكانته الحقيقية وطريقه المرجو. فقد شدّد أغلب المبحوثين على أنّ شرائح واسعة من النخبة الجزائرية لا تزال غير مستوعبة لفكر بن نبي رغم بعض الانفتاح الملاحظ عليه مؤخراً؛ وأنه «باستثناء المتخصصين والمهتمين، فإنّ هناك اطلاعاً سطحياً على الأطروحة البنّبوية؛ حيث لم يؤل الاهتمام بها بعد إلى تيار فكري أو قناعة ذات بعد عملي، بل ظل في كثير من الأحيان مجرد تمجيد لشخص المفكر، وترديد لبعض العبارات الواردة في كتبه من دون أن تتحول إلى مشاريع عملية»، بل حتى في بعض المناسبات العلمية التي تنعقد لمدارسة فكر الرجل (ندوات، ملتقيات) تبيّن أن كثيراً من مكونات النخبة الجامعية الجزائرية أبانت عن محدودية اطلاع وعن ضعف تعمق؛ ولا يعدو أن يكون الأمر في بعض الأحيان ترديداً للعموميات دون الغوص في قراءة مفردات المدونة الفكرية للرجل ونقدها والبناء عليها.

ويضيف بعض المبحوثين على أنّ مسألة «تقييم اطلاع النخب الجامعية على مشروع بن نبي تحتاج إلى إعداد ببليوغرافيا حول الأعمال والدراسات التي تناولت مشروعه» ومع ذلك يؤكدون «أن بن نبي من أكثر الأسماء التي شغلت النخب الجامعية في العقدين الأخيرين في الجزائر»، ولو أن بعض هذه الدراسات «اتخذت أسلوباً آخر في قراءة فكره قراءة تهوينية قدحية». وهكذا بقي مشروع بن نبي كما يوصّف أحدهم متنازعاً بين «تجربة نخبة حداثية تؤوله في سياق بناء العقل من منطلق الاحتكاك بالمشروع الفكري للحداثة؛ وبين تجربة الأصلانيين الذين اتخذوه كأداة توصيفية لإفلاس الغرب وتبرير حاجة الإنسانية إلى دور جديد للمسلم».

• وحول سؤال إزاء «رؤية المبحوثين حول ما إذا كان مشروع مالك بن نبي ما يزال يثير نقاشات في صفوف النخبة الجامعية الجزائرية؟»: وهو سؤال مكمّل لسابقه أجمع غالبية

المبحوثين على أن هذا المشروع لا يزال يثير نقاشاً في أوساط النخبة الجامعية الجزائرية، ويستدل بعضهم بعدد المؤتمرات التي تنعقد في مناسبات عديدة لتدارس إسهامات الرجل، وكذا بعدد الرسائل والأطروحات الجامعية ومشاريع البحث وبحوث التخرج(*)، للتأكيد أنّ النقاش حول فكره لا يزال حاضراً، وبسبب راهنية كثير من القضايا التي يطرحها المشروع البنّبوي وأهميتها، وإن كان بعض المبحوثين أكدوا أنّ «بعض هذه النقاشات ذات منحى نقدي وبعضها تجاوزي لكنها في الغالب شروح على المتن»، بل إنّ من المبحوثين من ذهب إلى أبعد من ذلك حينما قيّم هذا النقاش بأنه يؤول بالحصيلة إلى النتيجة نفسها، من حيث إنه يعوق كل إمكانات الاستفادة من المشروع، فهذه النقاشات إما أنها أسيرة بعض الأحكام المسبقة كما هي الحال لدى بعض خصوم بن نبي الأيديولوجيين الذين يعتبرون مشروعه «مشروعاً أصولياً يؤسس للتطرف الديني، ولا يتوافق مع روح العصر، فقط لأن بن نبي شدّد على الفكرة الدينية كعامل محوري في التركيب الحضاري، وهذا الفريق يحاول تأويل نصوص بن نبي واجتزاءها وفصلها عن سياقاتها وفق ما يخدم نزعته الأيديولوجية. ينضاف إلى هؤلاء فريق السطحيين الذين يتعاملون مع المشروع كمادة تاريخية تكدّس فيها النصوص دون تحليل عميق ولا نقد موضوعي»؛ في مقابل ذلك يتعامل فريق آخر مع المشروع «بنوع من التقديس مع بعض الإسقاطات الأسطورية كربطه بنجاح تركيا أو ماليزيا وبأنهما أنموذجان تطبيقيان للمشروع وهو رأي يجانب الموضوعية العلمية». حاصل القول أنّ هذا النقاش على أهميته ينبغي أن يتجه الوجهة النقدية والعلمية للبناء على عناصر القوة في هذا المشروع، وتجاوز ما يمكن أن يكون عنصر ضعف، وأن يتم تحريره من ذهان التقديس أو التزهيد لأنهما حدان لعقل كسول يسيء ويفسد أكثر مما يغني ويفيد.

الجدول الرقم (13)

تقييم المبحوثين لحضور الفكر البنّبوي على صعيد المؤسسة البحثية الجزائرية

التقييم	ك	النسبة المئوية
حضور كبير	03	13.63
حضور متوسط	09	40.91
حضور ضعيف	09	40.91
عدم إجابة	01	04.55
المجموع	**22**	**100**

(*) يبرز الجدول الرقم (12) إقرار المبحوثين بالحضور المتوسط أو الضعيف لفكر بن نبي على صعيد المؤسسة البحثية الجزائرية.

أغلبية المبحوثين بنسبة (81.82 بالمئة) يقيّمون حضور الفكر البنّبوي على صعيد المؤسسة البحثية الجزائرية (مخابر بحث، أطروحات جامعية..) بالمتوسط أو الضعيف، وبرّروا ذلك بعديد المسوغات منها: أنّ منسوب الوعي لدى هذه المؤسسات البحثية لا يزال ضعيفاً نتيجة غلبة الفكر التقليدي على المشهد؛ وندرة العنصر البشري الذي يحسن التواصل مع المشروع ويستأنفه. وإن كان هناك بعض الحضور فهو أقرب حسب بعضهم إلى الحضور الاحتفالي والمناسباتي.

كما يفسّر هذا الحضور الضعيف أو المتوسط حسب بعض المبحوثين بـ «عدم وجود مؤسسات متخصصة في فكر بن نبي تتصدى لمهمة تشجيع البحث والنشر المتخصص»، أو بالإشعاع السلبي الذي يوجه نحو فكر بن نبي والحمولة الأيديولوجية التي يراد إلصاقها به سواء من جانب التيارات الإسلامية السلفية التي قيّمت فكره كفكر مستلب حداثيا، أو من جانب التيارات التغريبية التي رأت فيه فكراً أصولياً. على الرغم من ذلك لا يزال هناك بعض الحضور الذي يتجسد في بعض الدراسات والأطروحات التي تنجز حول فكر الرجل ولكن لم يرْقَ كثير منها «إلى مستوى الاستيعاب النسقي والوظيفي لمشروعه الفكري».

- وفي ما يتعلق بالسؤال الذي تمحور حول رؤية المبحوثين حول ما إذا كان مشروع بن نبي لا يزال يحمل طابع الراهنية؟:

نزل كل المبحوثين من دون استثناء على رأي واحد أجمعوا من خلاله على أنّ هذا المشروع لا يزال إلى اليوم يحمل طابع الراهنية. ومع أنّ تبرير هؤلاء لم يخرج عن دائرة التسويغات والتحليلات التي تشيع في المقاربة البنّبوية عادة، وهو ما يعكس تأثر هؤلاء بخطاطتها الفكرية العامة؛ حيث لم نلمس تسويغاً أو تفسيراً خارج السقف المعرفي المعروف والشائع في الخطاب البنّبوي، إلا أنّ بعض المعطيات الواقعية تجعل لتبريرهم بعض الوزن، ومنه أن فكر بن نبي «لم يستثمر بصوره واقعية ولم يتح له التنزيل في حيز الواقع» «وأنه ما دامت القضية التي عالجها مشروعه لم تجد بعد طريقها إلى الحل؛ أي مشكلة الحضارة، فإن هذا المشروع يحتفظ بكامل لياقته، وإن كان هذا لا يعني أن يصبح هذا المشروع عائقاً منهجياً أمام كل قراءة نقدية أو تجاوزية».

- أما بخصوص السؤال الذي يتمحور حول موقف المبحوثين من مدى إمكان أن يسهم مشروع مالك بن نبي في إطلاق عملية إعادة بناء وتجديد تنقل العالم الإسلامي إلى أفق حضاري جديد؟: فقد أجمع كل المبحوثين على أنّ الأمر ممكن ولكن بشروطه، ومنها أن يتم تجاوز دائرة القول النظري إلى أفق المشاريع العملية؛ من دون شك يرى بعضهم أنّ مشروع بن نبي «يحمل الكثير من المقومات التي يمكن البناء عليها للخروج من الأزمة التي يتخبط فيها العالم الإسلامي، ولكن ما ينقص هذا المشروع الفكري هو إرادة سياسية تتبناه وتحوله إلى مشاريع عملية».

ويرى بعض المبحوثين أنّ مشروع بن نبي يتوافر على طاقة كامنة ثرّة يمكن في حالة توظيفها أن تنقل العالم الإسلامي إلى أفق جديد لأنه مشروع نبّه إلى عديد المعضلات، وقدّم تصورات مثيرة للانتباه لعلاجها، ومنها تشديده «على ضرورة إعادة بناء وتجديد العقل

المسلم، بل وعلى ضرورة إعادة بناء وتجديد كل العالم الثقافي للإنسان المسلم، وشحذ طاقته الروحية والنفسية، وإعادة بناء وتجديد إرادته، وعلى ضرورة إعادة قراءة التراث الإسلامي قراءة منهجية، وتجديد وعي الإنسان المسلم بالإسلام كمشروع للحياة، وتجديد فهمه للدين ولنصوص الوحي في ضوء الرؤية السننية، والواقعية والمرحلة التاريخية التي يمر بها العالم الإسلامي لتتحدد في ضوء كل ما سبق وجهة العالم الإسلامي الصحيحة».

ينبغي الاعتراف بأن الجهد التحليلي الذي وظّفه المبحوثون وهم يتفاعلون مع السؤال ـ هناك من ينتقدون بؤرة الانشغال البنّبوي مثلما أبان عنها كتاب **شروط النهضة**، ويرون أنه ككتاب يصنف ضمن الطروحات الثقافوية، بينما هناك حضور ضعيف للمعطى الاقتصادي الذي يبقى هو المحرك في الزمن الراهن؟ ـ كان ثرياً إلى أبعد الحدود، وقد دخلوا في نقاش معمّق مع الفكرة القائلة بأولوية الاقتصادي، وأنّ التشديد على الثقافة لحل مشكلة التخلف هو محض طرح ثقافوي، بأن نبّه كثير منهم إلى أنّ «المشروع البنّبوي لا يمكن حصره في كتاب **شروط النهضة** الذي يعبّر عن رؤيته في مرحلتها الجنينية، بل كل كتبه تمثل تعميقاً للمشروع الذي يعالج المسألة في أفقها الحضاري بما في ذلك المعطى الاقتصادي»، وعلى هذا فالقول بأن طرح بن نبي هو محض نزعة ثقافوية هو نقد أيديولوجي أكثر منه نقد معرفي، وهو نقد يستعير بعض أدواته من المقاربة الماركسية التي تعلي من المعطى المادي.

صحيح قول بعض المبحوثين إنّ «الطروحات التي راهنت على المعطى الاقتصادي وحده ربما حققت تنمية، لكنها لم تستطع بناء مجتمع وحضارة تنافس في المعترك الحضاري؛ حيث تبقى رهينة للعولمة ولشروط السوق، تنتعش بانتعاشها وتتراجع بتراجعها»، في حين أنّ بن نبي شدّد في مشروعه «على مركزية المعطى الثقافي في فهم وتحليل ومعالجة مشكلات الحضارة، وبكونه مدخلاً معرفياً ومنهجياً وإجرائياً في عملية البناء والنهوض والتجديد، فالمعطى الثقافي يشكّل جذر المشكلة وطريقها إلى الحل».

ولا يمكن لأي مشروع اقتصادي حسب البعض أن ينجح من دون عمل ثقافي يسبقه ويأخذ على عاتقه إعادة تشكيل الإنسان الذي هو أساس النهضة والتنمية، فـ «المحرك الاقتصادي هو تفريع عن كُلِّيَتَي الفكر والثقافة، والمأزق الاقتصادي هو بالضرورة نتاج لمأزق فكري ثقافي، وأي تفكير في حل اقتصادي يغفل الإطار المرجعي الفكري، والمتغير الثقافي للواقع، هو تفكير يحمل بذور فشله».

هذا من جهة، ومن جهة ثانية نبّه بعض المبحوثين إلى أنّ المشروع البنّبوي لم يهمل العامل الاقتصادي، و«المستوعب له يدرك موقع هذا المعطى في أطروحته، فهو لا يلغيه ولا يقلل من شأنه، لكنه أيضاً لا يضخّمه مثلما هو حاصل في الرؤى المادية، فمحور المشكلة الحضارية هو الإنسان وليس التراب»، والأرمادة الاقتصادية كما شدّد بعضهم «لا تتحرك إلا بتحريك عالم الأفكار، فالعقل المعطل غير المنتج» لا يمكنه أن يلد اقتصاداً منتجاً. مع هذا يصرّ بعض المبحوثين على أنّ كتاب **شروط النهضة** على أهميته في بلورة جنين الرؤية البنّبوية وركائزها الأساسية إلا أنه يبقى «فصلاً من فصول المشروع وليس

كل المشروع»، وإن كان «المعطى الاقتصادي واضحاً في عنصر معادلته الذي عبّر عنه بالتراب، فإنه واصل الاهتمام بالموضوع في كتابه المسلم في عالم الاقتصاد وكتاب فكرة كومنولث إسلامي».

وبينما نوّه جلّ المبحوثين ورافعوا على اهتمام المشروع البنّبوي بالمجال الاقتصادي كما يتجلى ذلك من خلال مضامين بعض مؤلفاته، رأى بعضهم أنّ هذه المرافعة تبدو أمراً «غير ذي جدوى، متى علمنا أن بن نبي لم يرَ نفسه صاحب مشروع نهائي، ولعلّه لهذا بدأ أول ما بدأ مشروعه بتفكيك عقدة الالتفاف المرضي حول البطل»، وبالتالي ترك المجال واسعاً لاستكمال ما يمكن أن يكون مظنة نقص في مشروعه، أو ما يمكن أن يكون قد تجاوزه منطق الزمن الراهن، وهو روح السؤال ما قبل الأخير الذي تضمنه الاستبيان وكان مفاده:

• هناك من يعتبر أن مشروع مالك بن نبي مشروع متجاوز، تقادم مع الزمن ولم يعد ممكناً الابتناء على كثير من مفرداته لأنها خلاصة فكر عائد إلى مرحلة تاريخية أصبحت هي الأخرى متجاوزة، وأن علينا التفكير في ما بعد البنّبوية، لأن البنّبوية أصبحت متجاوزة بموجب متغيرات العصر العولمي الراهن، فما رأيك في ذلك؟

من منطلق ضرورة التحرّر من النزعة التقديسية، وعدم الوقوع في الشخصنة والوثنية الفكرية التي لازمت العقل الإسلامي وثقافته في تراثنا وتاريخنا وتجربتنا الحضارية، وهي الأمراض الثقافية التي حذّرنا منها بن نبي نفسه، تأطّرت أغلبية ردود أفعال عينة المبحوثين إزاء هذا السؤال؛ حيث لم ينف جميعهم إمكان أن ينطوي المشروع البنّبوي على بعض المفردات التي يمكن أن يكون الزمن الراهن قد تجاوزها. وعلى هذا يعتبر بعضهم أنّ «التوصيف والحكم الذي ينطوي عليه هذا السؤال يعدّ صحيحاً في حدود معينة بالنظر إلى تاريخية بعض المشكلات التي عالجها بن نبي، خاصة ما تعلق منها بالبعد السياسي والإقليمي وحتى الاقتصادي منه»، أما الفكرة الجوهرية للمشروع، وسؤال النهضة الحضارية للأمة الذي طرحه فلا يزال يحتفظ براهنيته.

وبمنزع أكثر جدالية جادل أحدهم بأن «الأحكام الجزافية لا مكان لها في الخطاب العلمي، متسائلاً عن الأفكار التي يمكن اعتبارها متجاوزة؟، ليردّ بأنه يمكننا في هذا المستوى أن نناقش بشكل علمي ومنطقي ونقبل ونردّ، أما الحكم على المشروع في كليته بأنه متجاوز فهذا محض حكم جائر».

وإذا كان السؤال السابق ينطرح مستفهماً عن ما بعد البنّبوية، فقد تصدى أحد المبحوثين موضحاً أنه إذا كانت ما بعد البنّبوية تعني استيعاب الفكر البنّبوي وتجاوزه فإنّ هذا ـ في رأيه ـ لم يحصل بعد، وعليه فنحن بحاجة لرؤى تفصيلية وتطبيقية حسب التخصصات والمجالات لتطبيق فكر بن نبي وتفعيله، قبل الحديث عن المابعديات، وعلى هذا فالقول بتجاوز البنّبوية على الإجمال هو قول تثوي خلفه «أيديولوجية لا علاقة لها بالموضوعية لأنّ أهم ما يزعج مُشِيعِيها في مشروع بن نبي هو تشديده على محورية الفكرة الدينية في كل مشروع يروم النهضة، بينما لا يزال كثير من هؤلاء متمسكاً

ببعض المشاريع الفكرية الغربية التي تجاوزها الزمن، وما زال يحلم بتجسيدها في بيئة غير بيئتها التي أنتجتها». هناك ـ بحسب بعض المبحوثين ـ فريق واحد فقط ممن يَدْعُون إلى ما بعد البنّبوية يمكن قبول دعواهم هذه. إنهم أولئك الذين يستجيبون لروح مشروع بن نبي ذاته؛ حيث كان يدعو دائماً إلى عدم التعاطي مع متغيرات الواقع بترديد نفس مقولاته، بل من خلال التوظيف لروح المنهج الذي كان يتوسل به في مقاربة المشكلات، والتعاطي مع متغيرات لحظاته الزمنية التي عايشها؛ أي بعبارة أوضح تجاوز مشروع بن نبي لا يكون إلا بتطويره من داخل نسقه المعرفي وليس بالتنكر له بدعوى تغير معطيات الواقع».

- إذا كنت مع الرأي الذي يشدّد على أن مشروع شروط النهضة ليس متجاوزاً في كليته فما الذي تراه قد بقي صالحاً منه للاستصحاب أو التطبيق؟:

عطفاً على ما سبق من التحليلات التي قدّمها المبحوثون بخصوص مشروع بن نبي والتي خلصوا فيها جميعاً إلى أنه مشروع ما يزال لم يستنفد كامل طاقته وحمولته الفكرية، يأتي هذا السؤال ليتجاوز مستوى التقييم العام إلى مستوى التقييم التفصيلي، فإذا كان كل المبحوثين تقريباً قد نافحوا على راهنية الأطروحة البنّبوية، وشدّدوا على أنها تنطوي على قوة ذاتية لم تستطع متغيرات هذا العصر العولمي تجاوز كثير من مفرداتها، فإنّ مقصد هذا السؤال هو المضي مع المبحوثين إلى أقصى مستويات التحليل للتدليل على أنّ منافحتهم تلك ليست محض منافحة عاطفية وإنما هي منافحة لها صدقيتها العلمية.

ليس خافياً أنّ كثيراً من المبحوثين هم على قناعة تامة بأن بعض جوانب المشكلات التي عالجها بن نبي، وبخاصة ما تعلق منها بالبعد السياسي والإقليمي وحتى الاقتصادي قد أصبحت متجاوزة بالنظر إلى تاريخيتها، لكن هذا لا ينفي ـ في رأيهم ـ أنّ الأعماق الفكرية الصميمية للأطروحة البنّبوية لا تزال صالحة على الإجمال.

إزاء هذا المعطى تراوحت مواقف المبحوثين بين من استند إلى المعطيات النظرية التي تأسست عليها الأطروحة البنّبوية؛ حيث شددوا على أنّ «ما بقي صالحاً منها هو المنظور، والمفاهيم وأدوات التحليل، ومنهج معالجة الأزمة»؛ أي بمعنى آخر الرؤية الفكرية التي تصدر عنها بما هي رؤية كلية، إضافة إلى المنظور المنهجي الذي تسلحت به، وهو ما يكسبها مقدرة تفسيرية وازنة. أما الفريق الثاني من المبحوثين فقد استندوا إلى المعطى الواقعي؛ إذ تبقى الأطروحة البنّبوية ـ في رأيهم ـ محتفظة بكامل حيويتها «فطالما أنّ النهضة لم تتحقق، فالمشروع ما زالت مسوغاته قائمة»، وطالما أنّ «أغلب أمراض إنسان ما بعد الحضارة التي حددها بن نبي ما زالت قائمة، بل ازدادت تفاقماً وازدادت تجلياتها وضوحاً، فإنّ المشروع يبقى يقدم الأسس المعرفية والمنهجية والنفسية والاجتماعية لتجاوز هذه المرحلة التاريخية وتحقيق استئناف الدورة الحضارية الإسلامية وإعادة تأهيل إنسان ما بعد الموحدين ليلعب دوره الشهودي ويحقق وظيفته الاستخلافية».

وبلغة أكثر وضوحاً شّدد بعض المبحوثين على أن «تجاوز الأطروحة النهضوية البنّبوية يعني أحد أمرين لم يحدثا؛ إما توفر الشروط التي حددها مالك مع عدم إثمارها النهضوي،

مما يخطّئ الطرح البنّبوي، وهذا لم يقع بعد، وإما تحقق النهضة بشروط غير التي ذكرها مالك وهذا لم يقع أيضا، مما يؤجل الحسم في مقولة تجاوز شروط النهضة من منظور مالك بن نبي».

هذه الخلاصة المفتوحة تجعلنا نتساءل بخصوص العوائق التي وقفت أمام مشروع بن نبي وحالت دون تعميم الوعي به وإتاحة الفرصة له ليستفاد منه واقعيا وهو ما كان مناطاً للتساؤل الأخير للاستبيان.

• العوائق التي تقف دون تعميم الوعي بمشروع مالك بن نبي الفكري والاستفادة منه حسب رأي المبحوثين:

ينبغي الاعتراف بأن هذا المحور من استمارة الاستبيان كان من أكثر المحاور التي حظيت بتفاعل وازن من لدن المبحوثين، ولعلّ ذلك نابع من قناعتهم بجدوى إنفاذ المشروع البنّبوي في حيز الواقع الإسلامي لينقله إلى أفق حضاري جديد. وحتى نخرج عن منطق التعداد الحسابي لهذه العوائق على كثرتها، ونتجاوز إثباتها على شاكلة القوائم التفصيلية؛ عمدنا إلى تصنيفها إلى:

أ ـ عوائق فكرية وثقافية

تتجسد في مظاهر متكثرة لعل أبرزها:

ـ **العائق الأيديولوجي:** الذي يمنع كثيراً من عناصر النخبة المثقفة من الاستفادة من المشروع؛ حيث يتغلب منطق التصنيف أو النزعة نحو أدلجة الفكرة رغم إنسانيتها وعالميتها، وشيوع الأحكام المسبقة التي تختزل المشروع في المقالة الإصلاحية وتحتكم إلى الحجة القائلة بتقادم المشروع بسبب التحولات النوعية لدى الإنسان المعاصر.

ـ **وهيمنة الوعي السطحي والفوضوي** بمشكلات الأمة، وشيوع النزعة الاجترارية التي لم تتقدم بالأطروحة البنّبوية إلى الأمام.

ـ **والسياج النخبوي** الذي لفّ الأطروحة البنّبوية؛ حيث «لم يتم تبسيطها ليسهل فهمها كما كان الحال في قرطبة لما كان يبسّط علم المنطق للعامة، فالشارع هو الحاضنة الأساسية التي تزرع فيها الأفكار لكي تنتج وتخرج من بعدها النظري».

ب ـ عوائق سيكولوجية

مجسدة في الإرادات المشلولة التي تطبع إنساننا، وترهن كل مشاريعنا.

ج ـ عوائق مؤسسية

لخصها المبحوثون في: غياب الإرادة السياسية لدى الفاعل السياسي، وعدم وجود جهة سيادية تتبنى المشروع كلياً أو جزئياً.

د ـ مراصد الصراع الفكري

التي تعمل على إجهاض كل مشروع للنهضة، وتوظف كل آلياتها الجهنمية لتشويه الفكرة أو كفها وتعطيلها حتى لا تتحول إلى مشاريع كبرى، تنتشل المجتمع من واقع التخلف وتصله بمقتضيات الحضارة وأسبابها.

وأخيراً يشدد بعض المبحوثين على جدية الطرح الذي قدمه بن نبي وهو طرح لا يطيقه ـ في رأيهم ـ أصحاب الصدارة والزعامة، وطول مدة الحلول الحضارية التي يقدمها والتي يكرهها عادة المستعجلون كما في عالم السياسة والسياسيين.

خاتمة

ما انتهت إليه هذه الدراسة هو أنّ مشروع بن نبي لا يزال إلى اليوم حاضراً في نقاشات وحوارات النخبة الجامعية الجزائرية، وفي بعض فعالياتها العلمية، وإن كان ذلك بدرجة أقل على صعيد المؤسسة البحثية.

يحضر أيضاً الفكر البنّبوي في مجمل المشهد الفكري الجزائري الراهن لكن في مظاهر احتفالية لم يستفد منها كثيراً؛ حيث لم يَجرِ التجاوب معه على سبيل الإنضاج والتجاوز؛ وحيث يسود الشرح والتكرار. وعلى خلاف الجيل الأول الذي كان أكثر تشبعاً بالروح البنّبوية وأكثر نزوعاً إلى العملية والفاعلية وإن كان ذلك بروح نضالية، يميل الجيل الحاضر إلى قراءة المتن والمشروع البنّبوي لغرض المقتضى العلمي والأكاديمي، وبالتالي يبدو أبعد عن الحماسة الأيديولوجية، وأكثر قدرة على فتح مسالك نقدية يمكن أن تؤول إلى تجاوز استيعابي لهذا المشروع لو تتوافر لها بعض الشروط الموضوعية.

ومهما كان الأمر فإن فكر مالك بن نبي كان القاسم المشترك بين الجيلين؛ أي بين رؤية الجيل الذي تلقى الأطروحة البنّبوية على سبيل التتلمذ، وبين الجيل الذي تعرّف إليها من خلال مكابدات القراءة والبحث الأكاديمي الرصين، ففكر الرجل ـ مهما اختُلِف حول فهم وتقييم بعض مفرداته ـ كان نقطة التقاء يلتقي عندها الجميع. وعلى هذا فقد كان الدور النخبوي الذي أدّاه مالك بن نبي في جزائر الاستقلال أشبه بالجسر الذي ربط بين هذه النخب الفكرية والجيلية المختلفة، وبذلك استطاعت الفكرة البنّبوية أن تمتد وتعيش في الزمن، وأن يصل زخمها لكل هذه النخب.

على الإجمال يبدو مشروع بن نبي قادراً على إطلاق عملية إعادة بناء جديد، فهو على صعيد قيمته الذاتية ينطوي على قوة كبيرة، ولكن الذي يعوزه بالأمس واليوم هو قوة مؤسسية تسنده وتحوله إلى مشاريع عملية وواقعية، وهي مهمة السياسي الذي يبدو حتى الساعة أبعد ما يكون عن احتضانه، ومما يعطّل مسار الاستفادة منه عوائق بعضها فكري وثقافي، وبعضها سيكولوجي وبعضها مؤسسي.

ينبغي أن نؤكد في الأخير أنّ توسيع حقل هذه الدراسة ليشمل عدداً أوسع من عناصر النخبة الجامعية الجزائرية للحفر حول تمثلاتها حول المشروع، كفيل بأن يوقفنا على عناصر

القوة والضعف لنبتني عليها خطة عمل ترجع الوعي المفقود إزاء الإبداع البنّبوي، وهو ما لم يكن متاحاً لهذه الدراسة لاعتبارات الوقت والجهد، وذلك ما نأمل أن يتاح لنا مستقبلاً.

المراجع

برغوث، الطيب (2006). **محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي**. دمشق: مركز الراية للتنمية الفكرية.

البنعيادي، محمد (2009). **مالك بن نبي في ذاكرة عبد السلام الهراس**. الرياض: كتاب المجلة العربية.

بن نبي، مالك (2002). **من أجل التغيير**. ترجمة عمر كامل مسقاوي وبسام بركة. دمشق؛ بيروت: دار الفكر.

بوجنون، مسعود (2002). **الحركة الإسلامية الجزائرية: سنوات المجد والشؤم**. ترجمة عزيزي عبد السلام. الجزائر: دار مدني.

بورغا، فرانسوا (2001). **الإسلام السياسي صوت الجنوب: قراءة جديدة للحركة الإسلامية في شمال أفريقيا**. ترجمة: لورين زكري. ط 2. القاهرة: دار العالم الثالث.

بوكروح، نور الدين (1993). «مالك بن نبي صاحب تيار تنويري يدخل العالم الإسلامي في القرن 21».» **الشروق الثقافي**: العدد 15، تشرين الثاني/نوفمبر

حسن، سيد دسوقي (2018). «خواطر حول الفكر الحضاري لمالك بن نبي؟.» الفقه الحضاري، تشرين الأول/أكتوبر <http://www.fiqh-hadary.com/?page_id=74>.

حسن، سيد دسوقي (2018). «لمحات حول فكر الإمام مالك بن نبي.» الفقه الحضاري، تشرين الأول/أكتوبر <http://www.fiqh-hadary.com/?page_id=74>.

مسقاوي، عمر كامل (2013). «مالك بن نبي العائد إلى الجزائر عام 1963.» **الحياة**: 4/14، <http://www.binnabi.net>.

مصطفى، محمد (1990). «رجوع التذكير أو تاريخ مرحلة دعوية حاسمة.» **مجلة التذكير** (الجزائر): العدد 6.

مولاي، السعيد محمد (2012). «مالك بن نبي جسر التوازن بين المشرق والمغرب، وبين التراث والحداثة.» **الحوار اليوم**: 16 تشرين الأول/أكتوبر .<http://alhiwartoday.net/node/5072>

مقابلة مع الأستاذ عبد الوهاب حمودة يوم 7 حزيران/يونيو 2009 بمقر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بالجزائر العاصمة.

Brahami, Mostafa (2007). «Cheikh Ahmed Sahnoun ou l'indépendance incarnée dans ses plus nobles dimensions.» Algeria-Watch: 22 mars, <http://www.algeria-watch.org/fr/article/analyse/brahami_sahnoun.htm>.